العمل الميت والاقتصاد السياسي للمظاهر الطبيعية

دون ميتشل

ترجمة بتصرف
أ.د. مضر خليل عمر

نشأ الفكر الديالكتيكي لأنه من غير الممكن بشكل متزايد تجاهل حقيقة مفادها أن الحضارة ،
تحقيق بعض الإمكانات البشرية ، وفي الفعل نفسه تعمل أيضًا
على قمع الآخرين بشكل ضار. (إيجلتون، 2000: 23)

الحياة في كاليفورنيا

كان يوم الأحد 12 مايو 1991 أحد تلك الأيام التي توضح لماذا يريد الجميع العيش في كاليفورنيا . كانت الشمس مشرقة ، وكانت درجات الحرارة في منتصف الصباح في أوائل السبعينيات . كان هناك نسيم خفيف يحرك اللون الأخضر الطازج لأشجار الكمثرى والأوكالبتوس في الحديقة الخلفية لمنزل والدي ، حيث كنت أقيم لبعض الوقت . كانت الأزهار النابضة بالحياة والمروج ، وأشجار الكينا العطرة ، وأشجار الكمثرى والجوز المتبقية من البساتين التي كانت تملأ الوادي بين التلال ذات اللون البني الذهبي والمرصعة بأشجار البلوط ، تشير ببساطة إلى "حلم كاليفورنيا" - أو على الأقل نسخة الضواحي منه . لذا خرجت إلى الشمس مع القهوة وصحيفة سان فرانسيسكو إكزامينر وكرونيكل يوم الأحد ، التي كانت آنذاك صحيفة حضرية وذكية إلى حد ما مع مراجعة ممتازة للكتب وتغطية جيدة للفنون والموسيقى .

قبل أن أصل إلى المراجعات ، وجدت مدفونًا في القسم الأول من الصحيفة مقالاً قصيرًا يشرح قصة فرانسيسكو بوجارين . كان بوجارين مزارعًا للفراولة يبلغ من العمر 77 عامًا في وادي ساليناس ، على بعد حوالي 100 ميل إلى الجنوب من حيث كنت جالسًا . قبل بضعة أيام ، أقر بوجارين بأنه غير مذنب في تهم "إدارة معسكر عمل غير قانوني وصيانة مباني معسكر دون المستوى "(صحيفة سان فرانسيسكو إكزامينر وكرونيكل، 12 مايو .1991) تم إيواء حوالي 40 عاملاً مؤقتًا في مجموعة متنوعة من المباني الخارجية في مزرعة بوجارين الصغيرة نسبيًا أثناء حصاد الفراولة قبل بضعة أشهر .

كانوا يعيشون في حظائر ، وينامون بين الآلات والأدوات وعلب المبيدات الحشرية ، وهي الأدوات نفسها التي كانوا يستخدمونها لرعاية الحقول أثناء النهار . لم يكن هذا النوع من المساكن لجامعي الفراولة غير نمطي ، بل كان في الواقع فخمًا تقريبًا مقارنة ببعض المساكن التي اكتشفها المحققون في المنطقة : في وادي مونتيري القريب خلال الثمانينيات ، تم العثور على جامعي الفراولة الذين يعملون لدى خوسيه بالين يعيشون في كهوف صغيرة حفرها عمال المزارع أنفسهم من سفوح التلال المحيطة (ويلز، 1996: 210-214).

في مزرعة أخرى ، وجدت إدارة صحة مقاطعة مونتيري في عام 1985 50إلى 60 عامل مزرعة يعيشون في حظائر تخزين وشاحنات صغيرة وعربات تخييم وأكواخ مؤقتة من الورق المقوى والصفيح ومساكن خارجية وهياكل شاحنات ؛ لا توجد مراحيض كافية أو معتمدة ؛ لا توجد مياه صالحة للشرب من نظام مياه معتمد ؛ كانت جميع مناطق إعداد الطعام دون المستوى المطلوب ؛ تراكم القمامة والنفايات ، والنفايات منتشرة في جميع أنحاء المجمع ... مناطق النوم والمعيشة لم تتوافق مع قانون الإسكان الموحد

وقانون الصحة والسلامة في كاليفورنيا وقانون كاليفورنيا الإداري ؛ كانت النفايات البشرية موجودة داخل وخارج مناطق المعيشة المختلفة ؛ وتم تخزين المبيدات الحشرية والأسمدة والطعوم السامة داخل مناطق المعيشة والنوم والطهي ؛ وكانت حاويات المبيدات الحشرية المفتوحة والطعوم السامة المنسكبة داخل مناطق المعيشة والطهي والنوم ؛ وكان السكان يتناولون وجباتهم أثناء الجلوس على حاويات المبيدات الحشرية وحولها ؛ وتم تخزين المواد الخطرة ، بما في ذلك المبيدات الحشرية ، في المبنى ولم يتم تسجيلها لدى إدارة الصحة في مقاطعة مونتيري .

من الواضح أن مثل هذه الظروف ليست نتيجة لعدم وجود قوانين ولوائح . على الأقل منذ عام 1913 عندما أقر المجلس التشريعي في كاليفورنيا قانون الصرف الصحي في معسكرات العمل وكلف مجلس الصحة بالولاية بالاشتراك مع لجنة كاليفورنيا للهجرة والإسكان بتنفيذه ، كانت ظروف معسكرات العمل موضوعًا لإشراف وتنظيم الولاية . ومع ذلك ، في تاريخ وجغرافية سكن عمال المزارع في كاليفورنيا ، فإن مثل هذه الظروف ، مثل تلك الموجودة في مزرعة فرانسيسكو بوجارين هي القاعدة أكثر من كونها استثناء (ميتشل، 1996) .

كانت الظروف المعيشية في مزرعة بوجارين ، على الرغم من أنها غير قانونية بشكل واضح ، جيدة إلى حد ما وفقًا لمعايير الزراعة في كاليفورنيا في أوائل التسعينيات . كان لدى العمال على الأقل أسقف فوق رؤوسهم وإمكانية الوصول إلى المراحيض الخارجية . لم تؤد الظروف في مزرعة بوجارين إلا إلى سجنه لأن الحظيرة التي كان ينام فيها العديد من العمال اشتعلت فيها النيران وأصيب أربعة عمال ، اثنان منهم بجروح خطيرة . وفي ضوء الدعاية التي أحاطت بهذا الحريق ، لم يعد بوسع السلطات المحلية أن تغض الطرف عن الظروف المعيشية غير القانونية في مزرعة بوجارين . وعلى النقيض من الغالبية العظمى من زملائه من صغار المزارعين ، ومعظم كبار المزارعين ، كان بوجارين ببساطة غير محظوظ لأن ظروف إسكانه النموذجية إلى حد ما جذبت انتباهاً غير مرغوب فيه .

ولم تتحسن ظروف إسكان عمال المزارع في مختلف أنحاء ولاية كاليفورنيا بعد التماس بوجارين في مايو/أيار 1991. ففي عام 1997، وجد مراسل لصحيفة نيويوركر في سان دييجو مئات العمال المهاجرين الذين يعيشون في أكواخ من الورق المقوى في وديان مكتظة بالأعشاب ، وعمال "أكثر حظاً" يعيشون في حظائر دجاج تم تحويلها بالكاد ، وما يزال آخرون يحشرون أنفسهم ، عشرة في الغرفة ، في شقق مكتظة في مدن وبلدات المنطقة . كان العديد من العمال الذين أجرى المراسل مقابلات معهم من الزابوتيك الذين تم تجنيدهم خلال ثمانينيات القرن العشرين في مزرعة زهور في سان دييغو من قرى صغيرة في أواكساكا ، و"**هناك تم استعبادهم** : حيث تم احتجازهم في ديون دائمة ، وإخضاعهم للتهديدات بشأن دورية الحدود ، وإجبارهم على العمل ست عشرة ساعة في اليوم" (لانغيرفايش، 1998: 139). وفي النهاية ، اتُهم مزارع الزهور بالعبودية وأُدين بالابتزاز. ومثله كمثل بوجارين ، وبالمقارنة بزملائه ومنافسيه ، كان هذا المزارع ببساطة سيئ الحظ .

إن الاستشهاد بانتهاك قوانين العمل ومعسكرات العمل نادر للغاية ؛ والاعتقال والإدانة أكثر ندرة . وعلى النقيض من ذلك ، فإن عبودية الديون في كاليفورنيا ليست غير عادية على الإطلاق ، ونادرًا ما تتم مقاضاتها . كان العمال الذين يعيشون في مثل هذه الظروف في الثمانينيات والتسعينيات يكافحون في بيئة زراعية استمرت في النمو بشكل مكثف موسميًا على نحو متزايد . فقد نما الطلب على العمالة الموسمية في كاليفورنيا بنحو 20% خلال الثمانينيات والتسعينيات (بوجارين ولوبيز، 1998: 7). وفي أوائل التسعينيات ، وفقًا لتقديرات الخبير الاقتصادي الزراعي فيليب مارتن ، كانت هناك حاجة إلى نحو 800 ألف إلى 900

ألف عامل زراعي على أساس موسمي لشغل ما يعادل 300 ألف إلى 350 ألف وظيفة على مدار العام (كما ورد في بوجارين ولوبيز، 1998: 9).

خلال هذين العقدين من الزمان ، تم تطوير أنظمة جديدة لتعاقدات العمالة الزراعية والتي حولت عبء الامتثال لقوانين الإسكان والأجور وظروف العمل والهجرة من العديد من المزارعين إلى مقاولي العمالة المؤقتة (كريسمان، 1995؛ ثيلماني ومارتن، 1995) . في 77000 مزرعة في كاليفورنيا ، قد يكون هناك ما يصل إلى 154000 صاحب عمل زراعي (نظرًا لأن مقاولي العمالة يُعدون أصحاب عمل فرديين وبالتالي هم "موقع" التفتيش)، وفي عام نموذجي ، تم تفتيش ما يقرب من خمس في المائة فقط من أماكن العمل الزراعية (بوجارين ولوبيز، 1998: 21).

إن إدانة فرانسيسكو بوجارين في عام 1991، بعد صفقة إقرار بالذنب ، كانت نادرة للغاية . ولكن العوالم ـ المظاهر الطبيعية ـ التي مثلتها هذه الإدانة ، مثل مناظر الزهور، وعمالة السخرة ، وأكواخ الوديان في سان دييجو، ليست نادرة على الإطلاق . فهي كلها شائعة مثل الفناء الخلفي المليء بأشعة الشمس والمظلل بأشجار الكمثرى لمنزل والدي في منطقة خليج سان فرانسيسكو . ولكن مثل منزل والدي في الضواحي ، بسقفه المصنوع من الأسفلت ، وطلائه الأنيق ، وأسلوبه الاستعماري على طراز نيو إنجلاند ، وحديقتهما ، التي تضم أشجار الكينا ـ من أستراليا ـ وأعشاب البامباس ـ من الأرجنتين ـ وأعشاب المروج ـ من أوراسيا ـ والكمثرى ـ من أوروبا ، فإن المظاهر الطبيعية الزراعية في كاليفورنيا لا تحتوي إلا على القليل من "الطبيعية" البحتة .

إن المظاهر الطبيعية الزراعية في كاليفورنيا ، مثلها كمثل المروج والشجيرات المزخرفة في المنطقة التي نشأت فيها ، تخضع لتنظيم صارم ، سواء من خلال الاتفاقيات أو القوانين . ومرة أخرى ، مثل ذلك المنزل في منطقة خليج سان فرانسيسكو، الذي تم تصميمه بعناية على مدى ثلاثين عاماً ، وبحلول عام 1991 أصبح يعتني به بعناية جيش من "محترفي المظاهر الطبيعية" باستخدام جزازات العشب ، ومنفاخات الأوراق ، وآلات قص السياج التي تعمل بالغاز، فإن المظاهر الطبيعية الزراعية هي مكان للعمل ، والتعب ، والعمل الشاق المكثف . إن المظاهر الطبيعية في كاليفورنيا ، سواء في مظاهر الضواحي أو في مناطقها الزراعية ، **هي بناء اجتماعي أكثر من كونها طبيعية ، وهي حقيقة اجتماعية أكثر من كونها طبيعية ، وهي مكان تم صنعه وإعادة صنعه ، ويتم إنتاجه وإعادة إنتاجه باستمرار، والعمل فيه والتعب عليه** .

وفي كاليفورنيا ، فإن المظاهر الطبيعية ـ سواء كانت حضرية أو زراعية ـ هي نتاج للتنقل : التنقل الجسدي لعمال المزارع وهم يسافرون في أنحاء الولاية بحثاً عن عمل (وربما حتى ينتهي بهم الأمر في النهاية إلى الجلوس خلف مقابض جزازة العشب التي كانت تحافظ على فناء والديّ نظيفاً) إن المشهد الطبيعي في كاليفورنيا (الذي كان جميلاً للغاية) لا يقل جمالاً عن الحراك الاجتماعي الصاعد الذي شهده المهنيون مثل والدي . ومن المغري إذن أن ننظر إلى المشهد الطبيعي في كاليفورنيا كونه عابراً ، ومتغيراً ، وسريع الزوال ، وكأنه مجرد محاكاة ، إلى جانب جان بودريار (1988)، حيث يبني فرط الحركة "مساحة من التدفقات" (كاستلز، 1996) حيث "يذوب كل ما هو صلب في الهواء" (ماركس وإنجلز، 1998: 38). وفي هذا المنظور **فإن المشهد الطبيعي لا يكون مستقراً أبداً ، ولا ثابتاً أبداً** .

ومع ذلك ، عندما قرأت عن نداء فرانسيسكو بوجارين بعدم الاعتراض في صباح ذلك الأحد ، أدركت أن المظاهر الطبيعية التي عاش فيها هو وعماله (وكادوا أن يموتوا) كانت في كثير من النواحي مختلفة قليلاً عن المظاهر الطبيعية في كاليفورنيا الزراعية قبل الحرب العالمية الثانية والتي أعيد بنائها آنذاك من السجلات الموجودة في الأرشيف في مكتبة بانكروفت في جامعة كاليفورنيا . وهكذا فإن السؤال الذي كان يلح علي في

مايو/أيار 1991، والسؤال الذي ظل قائماً بعد عقد من الزمان ، هو كيف يمكننا أن نفسر استمرار المشهد الكاليفورني ، واستمرار هذا الظلم والحرمان الواضحين ، واستمرار المشهد الزراعي الذي يتسم يومياً بالعنف مثل ذلك الذي عاشه عمال مزرعة فرانسيسكو بوجارين في حريق الحظيرة الرهيب في منتصف الليل ، وكثيراً ما كان أكثر عنفاً مع كفاح العمال ، من خلال التنظيم والإضرابات ، وكل أشكال المقاومة الأخرى ، لتغيير هذا المشهد إلى شيء أفضل ، شيء أكثر عدالة .

والإجابة عن هذا السؤال لا تكمن فقط في نظرية الإنتاج المادي وإعادة إنتاج المشهد ، والتي ستكون مهمة هذا الفصل تطويرها ، بل تكمن أيضاً ، وعلى نحو أكثر مباشرة ، في المشهد ذاته من الراحة في الضواحي الذي كنت أعيش فيها حين قرأت عن فرانسيسكو بوجارين . أو ربما أكثر من ذلك ، يمكن العثور على الإجابة ، على الأقل في الخطوط العريضة ، في الفراولة نفسها التي كان عمال بوغارين يقطفونها في ذلك الربيع ، ربما نفس الفراولة التي شجعتني قريبًا على ترك شمس الحديقة الخلفية للذهاب إلى المطبخ لغسلها وتقطيعها ، حتى تتمكن من تزيين الفطائر التي سأتناولها أنا ووالداي لتناولها في غداء يوم الأحد .

العمل الميت

الفراولة ، مثل أي سلعة ، "تبدو شيئًا تافهًا" وهي "في الواقع شيء غريب جدًا ، مليء بالدقائق الميتافيزيقية والتفاصيل اللاهوتية" (ماركس، 1987: 76) - ليس أنني كنت أفكر بهذه المصطلحات عندما غسلت فراولتي وقطّعتها في صباح ذلك الأحد في1991 بل كنت أكثر اهتمامًا بشكل ونكهة الفاكهة ، ولونها وملمسها ، والتي اتضح أنها ليست أشياء تافهة على الإطلاق . ربما كانت الفراولة التي كنت أعمل بها قد أتت من منطقة الساحل الأوسط التي زرعها بوجارين ، حيث يهيمن توت الساحل الأوسط على السوق بحلول أوائل شهر مايو، ليس فقط في شمال كاليفورنيا ، بل وفي جميع أنحاء البلاد . على مدار فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية ، تغير حجم وشكل الفراولة ، وممارسات الزراعة والعمل التي ضمنت لها مكانًا في مطبخي ، بشكل كبير . فقد أصبحت الفراولة أكبر حجمًا وأكثر انتظامًا في الشكل واللون والملمس ، وأقل عرضة للتلف أثناء التخزين والنقل . كما أصبحت أقل قدرة وراثيًا على مقاومة الآفات والأمراض مع تطوير ممارسات الحضانة الأكثر نظافة والمبيدات الحشرية الاصطناعية (ويلز، 1996: 183). أو بشكل أكثر دقة ، لم تنمو أصناف الفراولة بقدر ما تم إنتاجها لتتضمن هذه الخصائص .

وهذا يعني أن الفاكهة التي كنت أقوم بإعدادها في ذلك الصباح - شكلها وبنيتها - كانت نتاجًا لساعات لا حصر لها من العمل (الجسدي والعقلي)، وسنوات لا حصر لها من التجارب ، وتحولات لا حصر لها في ممارسات الزراعة والصيانة والحصاد . في حين أن الفراولة قد تبدو شيئًا تافهًا ، إلا أنه لا يوجد شيء تافه على الإطلاق بشأن ملايين الدولارات من الأبحاث التي أجرتها جامعة كاليفورنيا ، وسنوات الهيكلة وإعادة الهيكلة الصناعية ، والساعات التي لا تُحصى التي قضاها العمال ، مضاعفة جهودهم ، في زراعة وقطف الفراولة ، كل ذلك حتى أتمكن من الحصول على فراولة كبيرة وعصيرية وموحدة ورخيصة متاحة لي طوال العام تقريبًا . إن الفراولة ، أثناء غسلها وتقطيعها ، لا تقول شيئًا عن العمل الذي تم بذله في صنعها ؛ فهي تبدو كما هي تمامًا ، كيانًا بيولوجيًا وراثيًا معقدًا – توتًا . ولا تقول شيئًا عن المشهد الذي يتم إنتاجها فيه . في كاليفورنيا ، هذا مشهد معقد للغاية . إنه مشهد يضم عددًا قليلاً من منتجي الفراولة الكبار، ومئات من المنتجين الصغار جدًا ، ونظام تسويق وشحن مركّز للغاية . في زراعة الفراولة ، يجب العناية بالنباتات بعناية ، وإعداد الحقول بعناية ، والإشراف عن كثب على قطفها وتعبئتها.

إن مثل هذه الحاجة إلى "المشاركة الإدارية تولد انعدام وفورات الحجم" ، وفقًا لويلز (1996: 39). وبالتالي فإن مزارع الفراولة تميل إلى أن تكون صغيرة نسبيًا . مزارع الفراولة الصغيرة في الساحل الأوسط منتجة بشكل مذهل – ومتزايدة . وفي كاليفورنيا ككل ، ارتفع إنتاج الفدان من 3.7 طن في عام 1946 إلى 24.2 طن في عام 1988. وفي الفترة نفسها ، ارتفعت حصة كاليفورنيا في سوق الفراولة الطازجة في الولايات المتحدة من 6% إلى 74% (ويلز، 1996: 29). وفي الوقت نفسه ، أصبح إنتاج الفراولة الطازجة مركّزًا مكانيًا : إذ أصبح إنتاج كاليفورنيا الآن محصورًا بالكامل تقريبًا (99 في المائة) داخل المقاطعات الساحلية الممتدة من سان دييغو في الجنوب إلى سانتا كروز في الشمال . في تلك المقاطعات ، تُزرع جميع الفراولة تقريبًا على بعد ثلاثة أميال من المحيط ، حيث يتم تعديل درجات الحرارة على مدار العام عن طريق التيارات المحيطية الباردة (ويلز، 1996: 31-2).

والمزارع التي تُزرع فيها الفراولة متنوعة مثل التضاريس الساحلية . ثلاث مجموعات عرقية رئيسية تزرع الفراولة في منطقة الساحل الأوسط : المكسيكيون واليابانيون و"الأنجلو". في أواخر الثمانينيات ، كان المكسيكيون هم الأحدث في الانتقال إلى مرتبة المزارعين ، وكانوا الأكثر عددًا ، وكانوا يميلون إلى امتلاك مزارع ذات مساحة أصغر وأقل الأراضي هامشية ، واستخدموا أقل كميات من التكنولوجيا ، وكان لديهم أقل عدد من التحسينات على الأرض ، وقطفوا أقل عدد من الصناديق لكل فدان ، وحصدوا أقل قيمة لكل صندوق من الفراولة المنتجة .

كان اليابانيون ، الذين بدأت العديد من عائلاتهم كمزارعين مستأجرين في فترة ما بين الحربين وعادوا إلى إنتاج الفراولة بعد إطلاق سراحهم من معسكرات الاعتقال في الحرب العالمية الثانية ، يميلون إلى امتلاك مزارع متوسطة الحجم وكانوا ثاني أكثر عددًا . كانوا يميلون إلى دفع أجور أعلى لعمالهم ، وتوفير المزيد من الفوائد ، مقارنة بنظرائهم الأنجلو والمكسيكيين . وبينما كان المزارعون الأنجلو هم الأقل عددًا ، إلا أنهم كانوا يمتلكون أكبر المزارع وكانوا الأكثر كثافة في استخدام رأس المال . وقد حصلوا على أعلى عائد لكل صندوق من الفراولة المقطوفة ، وكانوا يميلون إلى احتلال أفضل الأراضي الزراعية (ويلز، 1996: 122-3). وبالتالي ، كانت المظاهر الطبيعية للفراولة على الساحل الأوسط - وما تزال - عبارة عن خليط من المزارع التي تختلف من حيث الحجم وكثافة رأس المال وجودة الإنتاج .

يُحافظ على هذا الخليط من أنظمة الأراضي والعمالة من خلال شبكة من المشترين والشاحنين والمسوقين . وفي أواخر الثمانينيات ، تعاملت سبع شركات (شركتان زراعيتان وشاحنتان ، وتعاونية واحدة ، وأربع شركات شحن مستقلة) مع 60 % من إجمالي محصول التوت الطازج ، وتعاملت شركتان فقط مع حوالي 30 %. وعلى الرغم من التركيز العميق في التسويق ، تظل السوق تنافسية نسبيًا ، ويرجع ذلك جزئيًا إلى استمرار نمو الطلب على التوت الطازج ، وخاصة "خارج الموسم" التقليدي . إن زراعة وتسويق الفراولة الطازجة والمصنعة يتم تنظيمها والترويج لها من قبل "مجلسين استشاريين" تم تأسيسهما في أعقاب الاضطرابات التي شهدتها السوق في الخمسينيات من القرن العشرين . تعمل هذه المجالس على تعزيز الميزة التنافسية لصناعة الفراولة في كاليفورنيا (بما في ذلك تطوير الحملات الإعلانية ، ودعم البحث في الأصناف الجديدة وتقنيات الزراعة ، وتنظيم جدلية المنافسة والتعاون اللازمة لنجاح الصناعة). إذا كانت منظمات التسويق والمجالس الاستشارية تحافظ على شبكة منتجي الفراولة ، فإن هذه الشبكة ، مثل الفراولة نفسها ، لا يمكن تحقيقها إلا من خلال العمل البدني .

إن رعاية الفراولة وحصادها عمل شاق ومؤلم . إن زراعة الفراولة هي واحدة من أكثر المحاصيل التي تتطلب عمالة كثيفة في كاليفورنيا . وكما يلاحظ ويلز، فإن "العناية التي ينتقي بها العمال الفاكهة الهشة

ويتعاملون معها ويعبئونها هي العامل الأعظم الذي يحدد سعر السوق" (ويلز، 1996: 49). عادة ما يتم دفع أجر العمل في الحصاد بالقطعة ، ولكن حتى في هذه الحالة ، من المتوقع أن يقوم العمال بـ "تنظيف" الصفوف من خلال قطف والتخلص من الفاكهة المشوهة أو التالفة أو الفاسدة والأوراق الميتة . ويطلق العمال على الفراولة اسم "فاكهة الشيطان" . ويتطلب قطف الفراولة وصيانة النبات أن يقضي العمال اليوم منحنيين عند الخصر أثناء شق طريقهم في الصف ، وغالبًا ما يقفون ويمتدون فقط عندما يصلون إلى النهاية أو عندما يملئون صندوقًا .

وإصابات الظهر شائعة للغاية . وكذلك الأمراض التنفسية الناجمة عن استنشاق المبيدات الحشرية والغبار (ويلز، 1996: 169)، وبتر الأصابع واليدين ، وردود الفعل التحسسية المتطورة تدريجيًا لعصير الفراولة ، والزهور، والأوراق . إن قطف الفراولة أمر خطير، وفي هذا الصدد لا يختلف كثيرًا عن العمل الزراعي ككل (وهو ثاني أكثر المهن خطورة في البلاد : بوجارين ولوبيز، 1998: 25) . إن معدل الوفيات في المهن الزراعية يبلغ خمسة أمثال ونصف المعدل الوطني ، ومتوسط عمر عمال المزارع في أميركا لا يتجاوز ثلثي متوسط عمر الأميركيين الآخرين (بوجارين ولوبيز، 1998: 25؛ مايرز وهارد، 1995). والإصابات الحادة والمزمنة شائعة ، والوصول إلى الرعاية الصحية متقطع في أفضل الأحوال (موبد وآخرون، 1992).

لا يقتصر الخطر على الحقول . بل إن العنف ، سواء المزمن أو العرضي والذي يحدث غالبًا بعيدًا عن نقطة الإنتاج ، هو حقيقة من حقائق الحياة ، بل إنه عنصر أساسي في الاقتصاد الزراعي (ميتشل ، 2001). الغالبية العظمى من جامعي الفراولة ، مثلهم كمثل العمال الزراعيين ككل في كاليفورنيا ، هم من مواليد الخارج ، وفي تسعينيات القرن العشرين ربما كان أغلبهم غير موثقين ("غير قانونيين") . خلال تسعينيات القرن العشرين ، أدى تسليح الحدود بين المكسيك والولايات المتحدة إلى جعل العبور إلى الولايات المتحدة خطيرًا للغاية . وفي السنوات الخمس التي تلت بدء عملية - Gatekeeper وهو برنامج لبناء السياج وتكثيف دوريات الحدود في مقاطعة سان دييغو الحضرية - في عام 1994، ارتفعت الوفيات على طول الحدود بين الولايات المتحدة والمكسيك في كاليفورنيا من حوالي 20 حالة سنويًا إلى ما يقرب من 100 حالة سنويًا (إلينجود، 1999؛ جروس، 1999؛ نيفينز، 2001؛ سميث، 1999) . وتنجم العديد من هذه الوفيات عن التعرض أو الجفاف حيث يحاول المهاجرون غير المسجلين الذين يسعون إلى الهجرة إلى الولايات المتحدة أن يهربوا من البلاد ، لقد تم دفع المهاجرين الذين عبروا الحدود إلى أعماق الجبال والصحراء . وحتى أبعد من ذلك ، فإن إعادة الهيكلة الاقتصادية في المكسيك تدفع المهاجرين ـ ومعظمهم من الذكور ـ إلى الخروج من قراهم الأصلية والتوجه شمالاً إلى حقول كاليفورنيا ، على حساب الأسر الممزقة موسمياً ودائماً ، وتفكك الشبكات الاجتماعية ، وانقسامات طبقية أكبر (روتنبرج، 1998).

كما رأينا بالفعل ، فإن الظروف المعيشية في حقول كاليفورنيا ـ وفي حقول الفراولة على وجه الخصوص ـ مزرية في أحسن الأحوال . فالسل منتشر، وتؤدي ظروف السكن السيئة إلى تفشي الأمراض المعدية (مثل الحصبة ، التي قتلت 33 طفلاً في مقاطعتين زراعيتين في كاليفورنيا في الفترة 1989-1990) والتي أصبحت غالبية السكان الآن محصنة نسبياً ضدها (بوجارين ولوبيز، 1998: 26). إن الافتقار إلى المرافق الصحية سواء في الحقول أو في معسكرات العمل (الرسمية وغير الرسمية) يؤدي إلى ارتفاع معدلات الأمراض الجلدية المهنية (موبد وآخرون، 1992: 370)، والمخاوف بشأن سلامة الفواكه والخضروات عند وصولها إلى المستهلكين .

إذن ، ما هي تلك الفراولة التي كنت أجهزها ؟ مثل السكين التي كنت أستخدمها ، ومنضدة المطبخ التي كنت أعمل عليها ، والصحيفة التي تركتها ملقاة في الفناء الخلفي ، كانت ببساطة سلعًا . أو ليست بهذه البساطة ، كسلع ، كانت تجسيدًا لكل من قوة العمل والعلاقات الاجتماعية التي جعلت تطبيق قوة العمل على زراعة الفاكهة في حقول كاليفورنيا ممكنًا في المقام الأول . ومع ذلك ، فإن قوة العمل هذه ، وتلك العلاقات الاجتماعية ، معقدة للغاية . تشمل قوة العمل المجسدة في الفراولة عمل الباحثين في جامعة كاليفورنيا على مدار القرن العشرين ، فضلاً عن العمل المباشر للرجل أو المرأة الذي قطف السلة التي اشتريتها ؛ وهذا يشمل عمال المواد الكيميائية الذين أنتجوا المبيدات الحشرية التي تم رشها على الفراولة (وقبلهم ، العمال الذين قاموا ببناء المصنع الكيميائي ومكوناته) فضلاً عن عمل الشخص الذي وضع نبات التوت في الأرض في يوليو/تموز أو أكتوبر/تشرين السابق ؛ ويشمل إلى حد ما ، عمل المسوقين ، ووكلاء دوريات الحدود ، ووكلاء المشترين و(عدد قليل جدًا) من المفتشين من إدارة الصحة والسلامة المهنية في كاليفورنيا ووزارة العلاقات الصناعية .

إن العلاقات الاجتماعية التي تجسدها الفراولة تشمل الحدود الدولية التي تعمل كباب دوار يسمح للمهاجرين بالدخول ويدفعهم للخروج مرة أخرى عندما لا تكون هناك حاجة إلى عملهم (نيفينز، 2001؛ روبنسون، 1999)، والإفقار النسبي لعمال الفراولة (فقد انخفضت الأجور الحقيقية بنحو 40% في ثمانينيات وتسعينيات القرن العشرين) ، واعتماد أنظمة الزراعة بالمشاركة التي تحول المخاطر من الممولين وملاك الأراضي إلى المزارعين الصغار الفقراء (مثل فرانسيسكو بوجارين) ، والافتقار إلى المساكن اللائقة وبأسعار معقولة والمرافق الصحية في الحقول وما حولها ، و"التعديل الهيكلي" للاقتصاد المكسيكي ، ونجاحات وإخفاقات نقابات عمال المزارع في نضالاتها لتنظيم الحقول ، والتوزيع غير المتكافئ للسلطة الذي يجعل كل هذا ممكناً .

إن ما هو حاسم إذن هو الظروف التي يتم بموجبها تطبيق قوة العمل ، وكل ذلك حتى أتمكن من أكل الفراولة الرخيصة . لقد كانت الفراولة التي أزرعها وعقوبة السجن الوشيكة التي ينتظرها فرانسيسكو بوجارين مرتبطة ارتباطاً وثيقاً . لقد استوعبت الفراولة أو جسدت العلاقات الاجتماعية التي جعلت زراعتها وحصادها ممكناً ، وحولتها من مجموعة من العمليات المستمرة التي يكافح الناس من أجلها إلى شيء يمكن فهمه اجتماعياً (ولذيذ جداً) ، شيء له شكل وبنية محددين ، ومورفولوجيا . وبعبارة أخرى ، في حين يتم إنتاج السلعة من خلال عمل حي للغاية ، فإنها في حد ذاتها عمل ميت ، أي عمل متحجر، ملموس ، متجسد في شيء محدد ، له شكل محدد وبنية قابلة للتعريف (والتي بالنسبة للفراولة قد يكون لها علاقة بالبنية الجزيئية للفركتوز والبنية الخلوية للقشرة واللحم والبذور).

إن السؤال المطروح إذن هو دائماً كيف يتم إعدام العمل ، وإلى أي غاية ؟ وقد زعم **ماركس** أن "العمل الميت" في عملية إنتاج السلع في ظل الرأسمالية يمتص "العمل الحي" (1987: 293-294). فالعمل الميت الذي يشكل سلعة "يستهلك" العمل الحي "كخميرة ضرورية لعملية حياته الخاصة ، وعملية حياة رأس المال لا تتلخص إلا في حركته كقيمة تتوسع باستمرار". ولكي يتوسع رأس المال باستمرار من خلال إنتاج السلع ، فلابد من تنظيم معادلة استخراج القيمة الزائدة بحيث يستمر توسع عودة العمل غير المدفوع الأجر إلى رأس المال على المدى الطويل ، وفي ظل كل أشكال الظروف التاريخية غير المتوقعة والطارئة (1987: 545-551). في هذا الصدد ، عندما يواجه العامل في ظل الرأسمالية العالمية (العالم الذي صنعه) كونه عالمًا محددًا بـ "تراكم هائل من السلع" (1987: 43)، فإنه يواجه عالمًا من العمل الميت حيث يتجلى استغلاله الخاص - ولكن أيضًا غامضًا للغاية . ففي عالم السلع ، "تتخذ العلاقة الاجتماعية المحددة بين الرجال [والنساء] ... في نظرهم الشكل الخيالي للعلاقة بين الأشياء" (1987: 77): ليست العلاقات بين العمال الأحياء ، بل

العلاقات بين العمل الميت الآن ، وفي الواقع ، تم محوه بالكامل تقريبًا . إن مادية السلعة هي نتاج التحول "الصوفي" للعلاقات الاجتماعية الحية إلى شيء ملموس . المادية في عالم السلع هي "عمل ميت".

ولكن في إنتاج السلع الزراعية في كاليفورنيا ، لا بد من فهم هذه الاستعارة المتمثلة في العمالة الميتة من منظور أكثر من مجرد مصطلحات مجازية . فكما سبق أن أشرت ، فإن الزراعة في كاليفورنيا تتأسس على العنف ، والعنف الذي يمارس على الأجساد من خلال العمل الجائر المتواصل ، والتعرض للمبيدات الحشرية ، وظروف المعيشة المروعة ، فضلاً عن العنف المتفشي على الحدود ، وفي القرى الأصلية ، وفي الحملات الرامية إلى تنظيم عمال المزارع (والمقاومة التي يبديها المزارعون لهذه الحملات) ، وفي المدن والبلدات التي يعيش فيها عمال المزارع في مختلف أنحاء الوديان الزراعية في الولاية (ينظر أيضاً ميتشل، 1996؛ 2001).

عندما نريد أن نفهم كيف "يُقتل" العمل في حقول كاليفورنيا ، نحتاج إلى التركيز ليس فقط على الظروف والممارسات المباشرة للإنتاج (كما تفعل ميريام ويلز بشكل جيد)، وليس فقط على التحولات والابتكارات التقنية التي تميز الصناعة (كما تفعل أيضًا بشكل جيد)، ولكن أيضًا على أشكال العنف (وغيرها من العلاقات الهيكلية) الموجودة في نقطة الإنتاج وعلى طول الشبكات التي يسافر من خلالها عمال المزارع ، يوميًا وعلى مدار دورة الحياة ، للوصول إلى تلك الحقول (ميتشل، 2001). لم تخبرني الفراولة التي أعددتها وأكلتها في ذلك الصباح في عام 1991 بأي شيء عن هذا العنف ، وعن تلك الظروف التي تجعل العمل ميتًا (في كثير من الأحيان حرفيًا). لكن المقال عن فرانسيسكو بوجارين ألمح إلى ذلك .

ألمح ذلك المقال إلى شيء آخر أيضًا . لقد ألمح إلى الدور الحاسم الذي تلعبه المظاهر الطبيعية في ترسيخ الظروف التي تجعل العمل ميتًا في كاليفورنيا . كان عمال المزارع ، الذين يُوكَل إليهم رعاية وحصاد الفراولة ، يقضون لياليهم في مزرعة بوجارين ، ينامون في الحظائر والمباني الملحقة الأخرى ؛ وفي المزارع الأخرى كانوا يعيشون في كهوف صغيرة محفورة في سفح التل (ويلز، 1996). ولا توجد مثل هذه الظروف على الرغم من الإنتاجية والربحية الهائلة للزراعة في كاليفورنيا ، ولكنها الظروف الحقيقية لوجودها . ولكي نفهم هذه النقطة ، نحتاج إلى فهم نقطتين أخريين . أولاً، المظاهر الطبيعية ، مثل السلعة (أو بالأحرى، لأنها سلعة) ، **هي عمل ميت** . ثانياً، المظاهر الطبيعية ، مثل السلعة، تحير العلاقات التي تدخل في صنعها ؛ فهي أيضًا **"شيء غريب للغاية"** . ولتوضيح هذه النقاط ، سيتطلب الأمر بعض الشرح .

المظاهر الطبيعية

دخلت كلمة "المظاهر الطبيعية" إلى المعجم الجغرافي الإنجليزي من خلال شرح كارل ساور وتطويره لمفهوم "المظاهر الطبيعية" الألماني ، الذي نُشر لأول مرة في عام 1925. بالنسبة لساور، وفقًا للتقاليد الألمانية ، كان موضوع الدراسة "المعطى بسذاجة" للجغرافيا هو المظاهر الطبيعية : "المنطقة" أو "المساحة" و"الارتباط الجغرافي الغريب للحقائق" الذي حدد تلك المنطقة أو المساحة (1963: 320). بالنسبة لساور، كان الجغرافي مكلفًا بفهم وتفسير (وليس مجرد وصف) "ظاهرة المظاهر الطبيعية من أجل استيعاب كل معانيها وتلوين المشهد الأرضي المتنوع ("1963 :320.) إن هذا المشروع ما يزال حيوياً إذا أردنا ، على سبيل المثال ، أن نقف "وراء" تلك الفراولة ونفهم كيف يتم تصنيعها ، وذلك لأن "المشهد الأرضي" يشكل جزءاً لا يتجزأ من إنتاج الفراولة المعاصر، كما رأينا . ولكن ساور لم يكن مهتماً كثيراً بالقضايا السياسية والاقتصادية المعاصرة . بل كان مهتماً بدلاً من ذلك بإنشاء جغرافية (تاريخية) للمظاهر الطبيعية تتسم بالموضوعية الكاملة ، وتخلو من التوجه السياسي (الساذج) والمغالطات الذاتية الناجمة عن الحتمية البيئية .

ومع ذلك ، ظلت جغرافية المظاهر الطبيعية لساور معيارية بطرق مهمة . وكان هدفه الأساسي هو استخدام المظاهر الطبيعية كأداة استدلالية للوصول إلى فهم الثقافة التي صنعت تلك المظاهر الطبيعية . وانطلاقاً مما أسماه "**حقائق المكان**" ـ الأشياء الموجودة في المظاهر الطبيعية ـ زعم ساور أن المعرفة بالثقافة يمكن استيعابها . وكان نموذج ساور المعياري بسيطاً وأنيقاً . لقد زعم أن أي منطقة ، كانت "ثقافة" تعمل على "المظاهر الطبيعية" وتحولها إلى "مناظر طبيعية ثقافية" . وهذا يعني أن المظاهر الطبيعية الثقافية ـ أو ما أسميه هنا ببساطة "**المظاهر الطبيعية**" ـ كانت امتداداً للطبيعة التي تحولت إنسانياً ، ولكن الطبيعة تحولت لخدمة غاية معينة : احتياجات ورغبات الثقافة التي صنعتها . ومن خلال العمل إلى الوراء انطلاقاً من حقيقة المظاهر الطبيعية الثقافية ، يستطيع الجغرافي أن يرى كيف تحولت الطبيعة وبالتالي يتعلم شيئاً عن الثقافة التي عاشت في المظاهر الطبيعية وخلقتها : ما الذي كانت تفكر فيه تلك الثقافة ، وما الذي تريده ، وكيف عاشت ؟ ومن الممكن "قراءة" المظاهر الطبيعية للحصول على أدلة حول الثقافة والتغيير الثقافي .

كيف يتم صنع المظاهر الطبيعية

ومن خلال التوسع في هذا ، يمكن فهم المظاهر الطبيعية على أنها نتاج عمل بشري ، حيث يذهب الناس إلى العمل في الأرض لصنع شيء منها . إن هذا التمديد لم يقم به ساور في الواقع ، لأنه لم يسع قط إلى تفكيك "الثقافة" ، التي كانت في حجته - وفي كثير من الأعمال التجريبية التي دعمتها على مدار حياته المهنية الطويلة - تميل إلى العمل كـ "شيء" مفترض أو غير مدروس في حد ذاته ، كيان "فوق عضوي" متجسد له قواعد ومنطق خاص به (دنكان، 1980). خلف هذا الكيان الفائق العضوي ، وكما هو الحال مع السلع ، فإن العمل البشري يكمن وراءها ـ الممارسات العمدية والعلاقات الاجتماعية التي ـ التي تصنعها (ميتشل، 1995). إن فهم المظاهر الطبيعية ، وفهم "الثقافة" التي توجد في إطارها ـ يتطلبان فحص الممارسات البشرية ـ أشكال العمل . **فمن خلال العمل ، يتم صنع المظاهر الطبيعية وتعريفها** . وفي عملية العمل على المظاهر الطبيعية وفيها يتغير الناس أيضًا ، سواء كان هذا التغيير مفهومًا على مستوى الثقافة (كما هو الحال مع ساور، وكما هو الحال مع العالم الغامض حيث يمكنني أن آكل الفراولة بشكل مريح دون أن أعرف أو أهتم حقًا بكيفية حصولي عليها) أو على مستوى الجسم البشري الفردي (كما هو الحال مع ظهور جامعي الفراولة المحطمة). إن العمل إذن أمر بالغ الأهمية ، كما يزعم ماركس عندما يصف النشاط الأساسي الذي يجعل البشر عملاً واعياً إنسانياً :

> يعارض الإنسان نفسه الطبيعة كواحدة من قواها الخاصة ، فيحرك الذراعين والساقين والرأس واليدين ، القوى الطبيعية لجسده ، من أجل الاستيلاء على إنتاج الطبيعة في شكل يتكيف مع رغباته الخاصة . ومن خلال العمل على العالم الخارجي وتغييره ، فإنه يغير في الوقت نفسه طبيعته الخاصة(173 :1987) .

ومع ذلك ، فإن ما أدركه ماركس بوضوح شديد ، ولكن ما لم يواجهه ساور (الذي كان على أي حال مهتماً أكثر بالمجتمعات القديمة) قط ، هو أن قوة العمل التي يجلبها الناس إلى الطبيعة ، مثل الأشياء التي ينتجونها من الطبيعة ، أصبحت منفصلة أو على الأقل قابلة للانفصال عن أولئك الذين يمتلكونها .

"ويتابع ماركس قائلاً : ""إن هناك فترة زمنية غير قابلة للقياس تفصل بين حالة الأشياء التي يجلب فيها الإنسان قوة عمله إلى السوق للبيع كسلعة ، والحالة التي كان فيها العمل ما يزال في مرحلته الغريزية الأولى"" (1987: 173-174). أو بعبارة أخرى ، وفقًا لساور، فإن الثقافة البشرية لا تفعل شيئًا على الإطلاق : فالثقافة البشرية لا تعمل على الطبيعة ؛ بل إن الناس الذين يعملون في ظل ظروف تاريخية وجغرافية محددة

يفعلون ذلك . وهذه الظروف التاريخية والجغرافية المحددة ـ تلك الظروف التي يعارض فيها الناس أنفسهم الطبيعة كونها إحدى قواها ـ هي نفسها نتاج عمل سابق : إنها ""العمل الميت"" الذي يجعل أشكالًا محددة من العمل الحي ، وممارسات العمل المحددة ، ضرورية تاريخيًا وجغرافيًا . بهذه المصطلحات ، فإن المظاهر الطبيعية ، كونها محورًا وهدفًا للعمل البشري ، هي شكل من أشكال العمل الميت ." أو كما قال ديفيد هارفي ، ينبغي النظر إلى المظاهر الطبيعية كونها "سلعة مركبة ومعقدة ومرتبة جغرافيًا" ، وهي على النقيض من الفراولة "ثابتة" في مكانها بشكل دائم أو شبه دائم (1982: 233). وبالتالي فإن المظاهر الطبيعية الثابتة "تعمل كنظام موارد ضخمة من صنع الإنسان، يشتمل على قيم استخدامية مدمجة في المظاهر الطبيعية المادية ، والتي يمكن استخدامها للإنتاج والتبادل والاستهلاك".

إن استحضار "**قيم الاستخدام**" أمر مهم . فـ "قيمة الاستخدام" للمظاهر الطبيعية ، كما يشير هارفي، ثلاثية . أولاً، إنها **أداة إنتاج** (كما هو الحال مع حقول الفراولة ، وحظائر التعبئة ، وأنظمة الري بالتنقيط التي تشكل المشهد البصري لمنطقة الفراولة على الساحل الأوسط). ثانياً، تعمل المظاهر الطبيعية كـ **"أدوات استهلاك"** (هارفي، 1982: 229). إن أدوات الاستهلاك هذه - والتي يمكن أن تكون "متنوعة مثل أدوات المائدة وأدوات المطبخ ، والثلاجات ، وأجهزة التلفاز والغسالات ، والمنازل ، ووسائل الاستهلاك الجماعي المختلفة مثل الحدائق والممرات" - تجعل من الممكن إعادة إنتاج العمل (ميتشل، 1994) .

وكما زعم ماركس ، فإن مثل هذا الإنتاج يمتلك دائمًا "عنصرًا تاريخيًا وأخلاقيًا" محددًا ، والذي غالبًا ما يظهر كمجموعة من "الحاجات الطبيعية" و"الضرورية" ولكنه في الواقع نتاج للصراع الاجتماعي الماضي ـ العمل الميت .(1987: 168) وأخيرًا، فإن **المشهد مهم للتبادل** ، سواء كمساحات ثابتة تدور من خلالها رأس المال والسلع الأخرى والعمل (هندرسون، 1999)، أو كمنتج قابل للتصرف (كممتلكات) يمكن تبادله (بلوملي، 1998). ولوضع هذه النقطة الأخيرة بطريقة أخرى ففي حين يمكن تبادل المشهد كمنتج وممتلكات في حد ذاته ، فإن المشهد المادي يؤسس أيضًا للظروف التي يمكن أن يحدث فيها التداول ـ وهو ضرورة أساسية للرأسمالية . والمشهد يحتوي على قيمة تبادلية ، وهو ضروري لإنتاجها .

وكما زعم هندرسون (1999) ، مستفيداً من أطروحة "مان-ديكنسون" المؤثرة ومطوراً إياها ، فإن عمليات التداول تشكل أهمية بالغة للإنتاج الرأسمالي ، وخاصة الإنتاج الزراعي الرأسمالي . وبالاعتماد بشكل خاص على المجلد الثاني من كتاب رأس المال ، يُظهِر هندرسون أن التداول الرأسمالي يجب أن يُفهَم كونه سلسلة من "الحواجز والانقطاعات أمام رأس المال" نفسه (1999: 35). وإذا فهمنا أن الشكل الأكثر أساسية للتداول الرأسمالي هو حركة رأس المال النقدي إلى داخل عملية الإنتاج ثم خروجه مرة أخرى في هيئة سلع تُباع في السوق مقابل أموال أكثر من تكلفة أجزائها المكونة والعمل المبذول في عملية تصنيعها ـ نظرية ماركس الشهيرة "م-س-م" ـ فمن الواضح أن عملية التداول هذه ليست سلسة على الإطلاق .

إن رأس المال "متجمد في مكانه" ، في الآلات المستخدمة لإنتاج السلع ، وفي الأرض التي تستقر عليها الآلات ، وفي أجساد العمال . إن رأس المال لا يولد المزيد من رأس المال إلا إذا كان يدور (هارفي، 1982). ولكن رأس المال لا يستطيع أن يدور إلا إذا لم يكن هناك جزء من رأس المال يدور . ففي كل محطة على مسار الدورة ، وفي كل لحظة يتجمد فيها رأس المال ، وفي كل مكان حيث يموت العمل ، تتراكم المخاطر: فقد تنهار أسعار السلع ، وقد تجعل الابتكارات الجديدة من قبل المنافسين ممارسات الإنتاج عتيقة ، وقد تضرب العمالة ، وقد ينسحب أصحاب رؤوس الأموال المالية ويبحثون عن عوائد أكبر في مكان آخر، وفي الزراعة ، قد تغزو الآفات .

الأمر الحاسم ، كما يفترض مان ديكنسون ، وكما شرح هندرسون (1999: الفصل 2) بشكل جيد، هو **أن الإنتاج الرأسمالي ليس عملية واحدة من عمليات الدورة ، بل العديد من العمليات** . إن رأس المال يتداول داخل وخارج أيدي العمال في شكل أجور وسلع يتم شراؤها ، كما يتداول داخل وخارج الأسواق المالية . ويتداول داخل وخارج الأرض والآلات . ويميز ماركس بين "وقت العمل" (الوقت الذي يتم فيه تطبيق العمل فعليًا على عملية الإنتاج) ، و"وقت الإنتاج" (الوقت الذي يتم فيه استخدام رأس المال في إنتاج سلعة) ، و"وقت التداول" (الوقت المستغرق في إيصال السلع إلى السوق وبيعها وتلقي الدفع في المقابل) (هندرسون، 1999: 35). إن أوقات التداول المختلفة - العمل والإنتاج والتداول نفسه - المنظمة في عملية الإنتاج (حتى التسويق) غير متساوية إلى حد كبير . فهي لا تتداخل بسهولة ، أو غالبًا ما تكون جيدة . وهذا هو الحال بشكل خاص في الزراعة ، حيث يكون وقت الإنتاج متقطعًا للغاية (المحاصيل ، بعد كل شيء ، تستغرق وقتًا حتى تنضج في الحقول ، وهذا الوقت المطول هو وقت محفوف بالمخاطر الكبيرة) وبالتالي فإن وقت العمل متقطع أيضًا . ومع ذلك ، فإن احتياجات العمال ورغباتهم ليست متقطعة إلى هذا الحد .

لذلك، فإن إعادة إنتاج قوة العمل الزراعية ، في العديد من النواحي إن لم يكن كلها ، تختلف نوعيًا عن إعادة إنتاج قوة العمل في صناعات أخرى أكثر استمرارية . ولأن الزراعة ، وإزالة الأعشاب الضارة ، وغيرها من الوظائف غير المتعلقة بالحصاد تتطلب غالبًا عمالة أقل بكثير من الحصاد نفسه ، فإن العمالة الزراعية موسمية للغاية . هناك حاجة إلى عمال المزارع بأعداد هائلة لفترات زمنية قصيرة نسبيًا في كثير من الأحيان ، ولكن بعد ذلك الوقت ، عندما لا يتوفر سوى القليل من العمل أو لا يتوفر على الإطلاق ، فإنهم يصبحون عبئًا ، ويشكلون عائقًا أمام تداول رأس المال أكثر من تمكينه .

إن الحلول لهذه المشكلة المتمثلة في عدم تساوي أوقات الدورة الزراعية عديدة ، ولكنها تشمل الإبقاء على أنظمة العمل الأسري والفلاحي ، وتوسيع نظام المشاركة في الزراعة (الذي يحول المخاطر وتكاليف التكاثر من الممولين إلى المزارعين الفقراء الصغار) ، وخاصة في كاليفورنيا ، زيادة حركة العمال من خلال جعل الزراعة أكثر كثافة موسميا وأكثر تنوعًا إقليميًا . وهذا يعني أن الحل لمشكلة عدم تساوي أوقات الدورة الزراعية في المشهد الكاليفورني ، ولطالما كان كذلك ، يتمثل إلى حد كبير في زيادة القدرة على الحركة ، ليس من جانب رأس المال (على الرغم من أهمية ذلك)، ولكن بشكل حاسم من جانب العمال المهاجرين ، الذين وجدوا أن دوائر الهجرة توسعت وتسارعت . ويصبح العمال المتوقفون عن الحركة حاجزًا غير مقبول أمام حركة رأس المال .

والحل هو تحريك العمال ، وتعبئتهم ، وإبقائهم في حركة (كما سنرى قريبًا بمزيد من التفصيل). إن أحد الأهداف التي أنشئت من أجلها المظاهر الطبيعية هو إرساء أنماط من التداول ، وأنماط الإنتاج والتكاثر، أو ببساطة شديدة في كاليفورنيا ، أنماط المحاصيل والعمالة التي تكون مربحة . ولكن هذا لا يؤدي إلا إلى طرح السؤال الاتي : **ما هي المظاهر الطبيعية بالضبط؟ ما هو المشهد الطبيعي؟** المشهد الطبيعي هو تجسيد للعلاقات الاجتماعية التي تدخل في تكوينه . إنه الشكل الظاهري للعمليات الاجتماعية وممارسات الإنتاج والاستهلاك والتبادل ، مهما كانت معقدة . من الناحية النظرية ، المشهد الطبيعي هو "ديمومة منظمة"، والتي يعرفها هارفي ، مستمدًا من وايتهايد (1925)، بأنها "شيء ثابت نسبيًا وصلب ... نصادفه يوميًا في العالم وبدونه لن توجد الحياة الطبيعية والبيولوجية كما نعرفها .(1996: 50) "ومع ذلك ، قد لا تكون مثل هذه "الديمومة" ضرورية بشكل طبيعي ، بل إنها ليست كذلك عادةً . بل إن الديمومة ، التي تتراوح من الجهاز المؤسسي للدولة إلى كرة ملعب الطفل الحمراء ، كانت تاريخيًا طارئة ، تم تطويرها لحل بعض المشاكل أو تلبية بعض الاحتياجات (مختلقة أم لا) .

إن المشهد الطبيعي ، وفقًا لهذه المصطلحات ، هو **"لحظة معقدة في نظام إعادة الإنتاج الاجتماعي"** (ميتشل، 1996: 35) - إعادة الإنتاج الاجتماعي لرأس المال وإعادة الإنتاج الاجتماعي للناس . إن "اللحظة" مصطلح مهم لأنه يشير إلى أن أي ثبات منظم لا يظل دائمًا إلا بالقدر الذي يتم إعادة إنتاجه فيه باستمرار، وبالتالي فإن أي لحظة يمكن أن تصبح موقعًا للصراع . في الواقع ، إنها ، بحكم التعريف ، موقع للصراع ، لأنها عبارة عن تدخيل (وتجسيد) للعلاقات الاجتماعية (هارفي، 1996؛ أولمان، 1990) . السؤال إذن هو كيف يتم إعطاء هذه الثباتات ، هذه المجمعات من العلاقات الاجتماعية (مثل المشهد الطبيعي) ، شكلًا واستدامة بمرور الوقت . كيف (بواسطة أي عمليات اجتماعية ونضالات) نشأ "المشهد الأرضي المتنوع "؟

إن السؤال الذي يطرح نفسه الآن هو كيف يصبح العمل الذي يتجسد فيه ميتاً ؟ إن الإجابة عن هذا السؤال ليست بالسهلة ، لأن المظاهر الطبيعية ، مثل السلع التي تتألف منها ، أصبحت معبودة ومحجوبة ، وتخفي العمليات التي تدخل في صنعها . والواقع أن هذا هو الهدف منها في كثير من الأحيان . إن أفضل طريقة للإجابة عن السؤال حول كيفية استدامة المظاهر الطبيعية هي تغيير السؤال : فإذا كانت المظاهر الطبيعية عبارة عن شكل مبني ومغترب ومعبود تم بناؤه من خلال عمل الناس في ظل ظروف أنشأتها نضالات العمالة الميتة بالفعل ، فماذا تفعل المظاهر الطبيعية إذن؟ إن أحد الأشياء التي تفعلها المظاهر الطبيعية ، كما أشرنا بالفعل ، هو **توفير مسرح يتداول عليه رأس المال** (داخل وخارج المحاصيل ، على سبيل المثال)، وعلى وداخله يتكاثر العمال (وأسرهم) . **إن المظاهر الطبيعية هي موقع إنتاج وإعادة إنتاج الحياة الاجتماعية** . إن **المظاهر الطبيعية هي المكان الذي تقام فيه الحياة** . ولكن كما اقترح شين ، فإن المظاهر الطبيعية تعمل "كعادة بورديو (1977: 82، 79): التاريخ يتحول إلى طبيعة من خلال فقدان ذاكرة التكوين" (1997: 663). إن المظاهر الطبيعية تضفي طابعاً طبيعياً على العلاقات الاجتماعية وتجعلها تبدو حتمية . وبصورة أكثر دقة ، فإن المظاهر الطبيعية تضفي طابعاً مادياً على العلاقات الاجتماعية ولا تخلق "فقدان ذاكرة التكوين" بقدر ما تخلق شيئاً قوياً اجتماعياً ، والذي من أجل أن يتحول لابد من تفكيكه وإلقائه في حالة من الفوضى وتفكيكه حرفياً كمناظر طبيعية (ميتشل، 1996: الفصل 6).

وفي هذا الصدد، لا تعمل المظاهر الطبيعية كمرحلة تقام عليها الحياة ، وحيث يحدث إعادة إنتاج رأس المال والمجتمع فحسب . بل تعمل أيضاً كواقع ، كشيء موجود (وبالتالي ، إلى حد كبير، ما يمكن أن يكون). وهذا يعني أن إحدى وظائف المظاهر الطبيعية هي عرض النظام المعياري للعالم . ولنتأمل هنا حالة خوسيه بالين ، الذي كان عماله يعيشون في الكهوف . وتروي ميريام ويلز: "على الرغم من أن الغرباء وجدوا هذه الظروف المعيشية صادمة ، إلا أن المزارع وعماله لم يجدوها غير عادية على نحو خاص... فلم يكن بالين نفسه يعيش في ظروف كان العديد من المزارعين المولودين في الولايات المتحدة ليعتبروها غير مقبولة فحسب ، بل إنه رأى في مأوى عماله دليلاً على كرمه . لقد رأى بالين نفسه راعياً لعماله ، وعرض عليهم العديد من المزايا بالإضافة إلى الأجور. فقد سمح للعمال بالعيش على أرضه دون مقابل ، وقدم قروضاً صغيرة لإعالة بعضهم بين الشيكات ، ورداً على مكالمات هاتفية من الحدود ، دفع للكايوت مقابل العديد من العمال العائدين الموثوق بهم وخصمها من الشيكات الأولى التي يتقاضونها(13–212 :1996) .

بالإضافة إلى ذلك ، وجد الأخصائيون الاجتماعيون والناشطون صعوبة في تنظيم العمال لتقديم تهم ضد بالين ، ليس فقط لأن الظروف لم تكن غير عادية ، ولكن أيضًا بسبب الخوف من ترحيل العديد من العمال . وفي هذا الصدد ، كما يلاحظ شين ، يجب فهم المشهد "كلحظة مفصلية في شبكات تمتد عبر الفضاء" (1997: 663)، شبكات تشمل الحدود ودوريات الحدود ، ومعسكرات العمل ومدن المنشأ ، والحقول والكهوف (وهي النقطة التي سأعود إليها). وبالتالي فإن المشهد يعمل على تحويل ما هو غير عادي وعَرَضي (الكهوف

للعيش فيها ، والعمل بالسخرة) إلى ما هو عادي وضروري - وجيد (السكن المجاني ، المساعدة في عبور الحدود).

إن المشهد الطبيعي ، عندما لا يكون موضع نزاع ، يعمل على ترسيخ الظروف التي يتم بموجبها استخراج القيمة الزائدة . وكما زعمت سابقًا (ميتشل، 1994: 13)، فإن المشهد الطبيعي يحدد ما هو "طبيعي" أو "عقلاني" في مكان معين ، وبذلك يؤثر بشكل ملموس على معادلة القيمة الزائدة في منطقة ما . وإلى الحد الذي لا يكون فيه المشهد الطبيعي موضع نزاع ، وإلى الحد الذي يمكن فيه تهدئة الاضطرابات العمالية بسبب الشعور بأنه لا يوجد ببساطة أي بديل ، عندئذٍ يمكن توسيع نطاق القيمة الزائدة . وبالتالي فإن **المشهد الطبيعي هو شكل من أشكال التنظيم الاجتماعي**. إن الدوام المنظم الذي يمثل المشهد الطبيعي يشكل وينظم الصراع الاجتماعي (يساعد في تحديد ما هو ممكن وما هو غير ممكن ، ويعرض ما هو عادي ومتوقع وما هو غير عادي) في الوقت نفسه الذي يتشكل فيه من خلال الصراع الاجتماعي وينظمه . هذا هو الاقتصاد السياسي للمظاهر الطبيعية .

ماذا يعني المشهد الطبيعي

إن هذا السؤال يتعلق بما تعنيه المظاهر الطبيعية . ماذا يعني أن تتألف المظاهر الطبيعية من حقول وكهوف وحظائر تستخدم للنوم ، وماذا يعني أن توجد هذه المظاهر الطبيعية جنبًا إلى جنب مع المظاهر الطبيعية التي تقطنها الطبقة المتوسطة العليا في الضواحي حيث نشأت ؟ هنا تصبح الأمور معقدة للغاية . ففي حين استعارت الجغرافيا الأنجلو أمريكية مفهومها عن المظاهر الطبيعية بشكل مباشر من الجغرافيا الألمانية Land schaft، فإن تاريخ فكرة المظاهر الطبيعية ، كما شرحها كوزجروف (1998) ببراعة شديدة ، أعمق وأكثر تعقيدًا مما تسمح به أصول المصطلحات الجغرافية . فبجذورها في إيطاليا عصر النهضة (من بين أماكن أخرى) ، تشير "المظاهر الطبيعية" إلى "**طريقة معينة للرؤية**" (باستخدام عبارة جون بيرجر الموفقة) ملفوفة في علاقة معينة بالأرض تُفهم على أنها ملكية . وهذا يعني أنه في حين أن المظاهر الطبيعية كونها ملكية ، إن الارتباط أو التجميع الجغرافي للأشياء على الأرض هو لحظة في عمليات الإنتاج وإعادة الإنتاج الاجتماعي ، وكونه أيديولوجية فهو وسيلة خاصة لتنظيم وتجربة النظام البصري لتلك الأشياء على الأرض (بيكر وبيجر، 1992؛ بيرجر، 1971؛ كوسجروف، 1985؛ 1998؛ دانييلز، 1993؛ روز، 1993؛ ويليامز، 1973).

يمكن رؤية المظاهر الطبيعية وتجربتها من الخارج من وراء حدود المظاهر الطبيعية - كما هو الحال عندما ينظر المرء إلى الخارج وإلى الأسفل على المنظر من وجهة نظر على طول الطريق السريع . وعلى حد تعبير كوسجروف ، "في المظاهر الطبيعية ، يُعرض علينا عنصر مهم من عناصر السيطرة الشخصية على العالم الخارجي" (1998: 18). يمكننا ، إلى حد ما ، التحكم في المنظر، وتنظيمه للتأكيد على ما نعده مهمًا أو جذابًا . إن وجهة نظر "الداخلي" ، إذن ، ليست وجهة نظر للمظاهر الطبيعية : "**يبدو أن مصطلح "المكان" هو مصطلح أكثر ملاءمة" لمثل هذا الوجود الداخلي** (1998: 19). ومع ذلك ، إذا كان هناك "عنصر من عناصر التحكم الشخصي" ، فإن هذا العنصر نفسه مشروط بعمق بالعلاقة التاريخية بين طريقة المظاهر الطبيعية في النظر إلى تسليع الأرض - وتحويل الأرض والمكان إلى ملكية .

تتحقق المسافة من خلال الاغتراب ، إلى الحد الذي يمكن فيه فصل الأرض ، واغترابها ، وجعلها قابلة للتبادل بقطع أخرى مماثلة وغير مماثلة من الأرض ، عندئذٍ يمكن تحقيق المسافة التي تسمح برؤية الأرض كمظاهر طبيعية ، كشيء "خارجي" - كشيء منفصل يمكن النظر إليه في مورفولوجيته المحددة ككل

. بدوره ، فإن هذا التحول للأرض إلى منظر طبيعي ، إلى شيء يمكن مشاهدته ، يفترض تقسيمًا محددًا للعمل حيث لا يقوم المالك بالعمل الذي يحول أرضه إلى منظر طبيعي ؛ إن هذا المفهوم يفترض تقسيماً رأسمالياً للعمل . فالمظاهر الطبيعية هي طريقة محددة للرؤية ، وهي شكل من أشكال ما يسميه كوسجروف (1998) "**أيديولوجية بصرية**"، ولكن هذا صحيح لأن الأرض التي يتم العمل بها والتي تشكل المظاهر الطبيعية هي سلعة . ومثل الفراولة ، فإن مظهر المظاهر الطبيعية لا يكشف إلا القليل ، بشكل مباشر، عن كيفية صنعها . وبالتالي ، وعلى عكس ساور، من المستحيل ببساطة قراءة "الثقافة" من المظاهر الطبيعية ، على الأقل ليس من دون القيام أولاً بالعمل الشاق المتمثل في **تحديد مجموعات العلاقات الاجتماعية التي تشكل تلك "الثقافة" في المقام الأول . إن المظاهر الطبيعية تحير**.

هذا هو المعنى الذي يشير به ريموند ويليامز (1973: 32-4) إلى أن "المظاهر الطبيعية" تمحو العمل ، و وجود العمال . إنه لا يعني أن المظاهر الطبيعية غير مشغولة . بل إنه يعني أن العمل الذي يدخل في صنع المظاهر الطبيعية مخفي عن الأنظار ومنفصل عن أولئك الذين قاموا به (دانييلز، 1989) . إما هذا ، أو أن المظاهر الطبيعية تخدم في إضفاء طابع جمالي على العمل ، وجعله خلابًا ، وهو ما يؤدي بطبيعة الحال إلى التأثير الموازي المتمثل في محو ليس العمل نفسه ، بل الظروف التي يتم العمل في ظلها (ويليامز، 1973: 56). واستنادًا إلى تقنية المنظور الخطي التي تضع المشاهد في موقف "إلهي" حيث يكون المشهد بأكمله منظمًا ومنظمًا بالنسبة له (كوسجروف، 1985)، تعمل المظاهر الطبيعية كمنظر "واقعي" "أيديولوجي في الواقع .... تُصبح الذاتية ملكية للفنان والمشاهد أولئك الذين يتحكمون في المشهد الطبيعي - وليس أولئك الذين ينتمون إليه" (كوسجروف، 1998: 26). إن ما يتم تصويره وما يُرى ــ ما يُفهَم على أنه ــ ذو معنى ــ يتحدد من نقطة خارجية عن المشهد الطبيعي ، وفي عالم الإيديولوجية (القائمة على الملكية): ما يسميه ويليامز "**النظرة المنفصلة الصريحة للمشهد الطبيعي**" (1973: 56).

وعلى هذا النحو، فإن معنى المشهد الطبيعي ، في حين أنه مقيد بكل من "**حقائق المكان**" التي تشكل المشهد الطبيعي المورفولوجي ، والتيارات الإيديولوجية المتطورة تاريخيًا والتي يُنظر من خلالها إلى المشهد الطبيعي ، فهو في حد ذاته موقع للصراع الاجتماعي . إن معنى المشهد الطبيعي ليس معطى ولا مستقرًا أبدًا ؛ إنه صراع حوله ، و"طبيعته" و"واقعيته" موضع نزاع مستمر، ومكوناته يتم إعادة ترتيبها باستمرار من قبل الجهات الفاعلة الاجتماعية المهتمة في جهودها لاستخدام المظهر الطبيعي لإظهار أشياء جديدة للعالم ، وجوانب مختلفة ، وطرق أفضل للرؤية .

ولكن ماذا تعني حقول الفراولة على الساحل الأوسط ومسقط رأسي الضواحي في الشمال ؟ هذا سؤال مفتوح ، ويتحدد حله من خلال الطريقة التي تتجلى بها الحياة الاجتماعية ــ وعلاقات الإنتاج والتكاثر ــ عبر المكان والزمان . وبعبارة أخرى ، فإن معنى المظاهر الطبيعية يشكل أيضاً جزءاً (متنازعاً عليه) من الاقتصاد السياسي ، وأحد أهدافي في هذا الفصل هو الكشف عن معنى زراعة الفراولة والمظاهر الطبيعية في الضواحي في كاليفورنيا ، ولو على نطاق ضيق للغاية ، وإظهار كيف أن المظاهر الطبيعية التي تبدو عادية إلى حد كبير للإنتاج الزراعي والاستهلاك في الضواحي هي في الواقع معقدة ومترابطة بشكل لا ينفصم ، وهي أماكن محددة **بجغرافية الظلم** التي سمحت لي بأن أعيش حياة سهلة في كاليفورنيا فقط ــ لأن عمل الآخرين ــ عمل آخر ميت ــ جعل تلك الحياة ممكنة ، حتى في حين تعمل المظاهر الطبيعية للإنتاج والاستهلاك على تقديس تلك العلاقات وإرباكها . كل ما يمكن قوله هو أن معنى المظاهر الطبيعية هو وظيفة من لديه القدرة على تمثيل تلك المظاهر الطبيعية.

أين توجد المظاهر الطبيعية

ولكن لتقديم هذا الادعاء البسيط ، يتطلب تحويل معنى المظاهر الطبيعية - أو توسيعه بطرق معينة . أحد التعريفات القياسية للمظاهر الطبيعية هو امتداد للمظاهر الطبيعية يُرى من نقطة مراقبة واحدة . إن هذه النقطة ، كما يليق بأيديولوجية ملفوفة في تكنولوجيا المنظور البصري . وبالتالي ، فإن الميل الطبيعي ، والذي يشجعه فقط التاريخ الطويل **للمظاهر الطبيعية كونها أيديولوجية بصرية خاصة** ، هو البحث عن حقائق إنتاج المظاهر الطبيعية داخل المظاهر الطبيعية المحددة محليًا نفسها . كان هذا هو الدافع وراء افتراض ساور بأن أدلة "الثقافة" التي صنعت المظاهر الطبيعية يمكن تحديدها داخل "**حقائق المكان**" للمظاهر الطبيعية القائمة ؛ كما يمكن القول إنها السمة المميزة الوحيدة التي تربط بين دراسات المظاهر الطبيعية بأكملها في الجغرافيا والمجالات ذات الصلة . إن التحول والتوسع الذي يجب إجراؤه - والسبب نفسه الذي سعيت من أجله لإظهار كيف أن المظاهر الطبيعية تشبه وتشكل سلعة في الوقت نفسه - هو التحول والتوسع . وكما أن العلاقات الاجتماعية للإنتاج التي تجعل سلعة مثل الفراولة ممكنة لا توجد فقط داخل حقل الفراولة نفسه ، بل وأيضاً في معسكرات العمل القريبة ، وقاعات الاجتماعات في المدن ، ومبنى الكابيتول في الولاية ، ومختبرات الأبحاث في مختلف فروع جامعة كاليفورنيا ، وأسواق المنتجات الزراعية ومحلات البقالة في مختلف أنحاء البلاد، والحدود (ومن ثم واشنطن العاصمة) والقرى والمدن والبلدات التي يأتي منها العمال من المكسيك وأميركا الوسطى ، فلابد وأن ننظر إلى هذه الأماكن لفهم كيف أصبحت المظاهر الطبيعية التي نراها في كاليفورنيا ، وعلى وجه التحديد ، ما تعنيه لأولئك الذين ينتمون إليها .

وهذا يعني أنه لفهم المظاهر الطبيعية بكل أهميتها المادية والإيديولوجية ، يتعين علينا أن نجد طرقاً أفضل لربط حقول الفراولة بالفناء الخلفي لمنزل والدي . ويتعين علينا أن نفعل ذلك بطريقة حساسة للعمليات المادية المعقدة التي لا تعمل محلياً فحسب ، بل وأيضاً عبر وداخل مجموعة واسعة من المقاييس . إننا بحاجة إلى فهم المشهد كما يتشكل من خلال العمليات التي تبني "ديمومة منظمة" تتراوح من أجساد العمال ، مروراً بـ"حقائق المكان" المحلية ، وصولاً إلى الاقتصاديات الإقليمية والوطنية والعالمية والعلاقات الاجتماعية التي يتجسد فيها المشهد . كما نحتاج إلى إظهار كيف ترتبط المظاهر الطبيعية في أماكن مختلفة ببعضها البعض من خلال أجساد العمال (والمستهلكين)، والتدفقات المتحركة لرأس المال (والسلع)، والأهداف المتحركة للسياسة الإقليمية والوطنية والعالمية (وتطبيقها العنيف). إننا بحاجة إلى إظهار كيف أن المظاهر الطبيعية لعمال قطف الفراولة على الساحل الأوسط وسكان الضواحي من الطبقة المتوسطة العليا ليست كيانات منفصلة ، بل هي جزء من النظام نفسه ، وهو النظام الذي قد يكون شديد التمايز ومتناقضاً تماماً ، ولكنه نظام مع ذلك . إننا بحاجة إلى فهم أنه في حين أن المشهد الطبيعي موجود دائماً في مكان ما مادياً ، فإنه أيضاً يتشكل اجتماعياً هناك وفي أماكن أخرى . نحن بحاجة إلى فتح المشهد ، تمامًا كما فتحت الفراولة ، لنرى ما يجسده ، وما يستوعبه ، ولنحدد الأماكن الأخرى التي يرتبط بها ، ولنرى (أين) يتم إيقاف العمل حتى يتمكن من الاستمرار.

كاليفورنيا تحتضر

عندما يتم "شقها" فإن تشريح - شكل - المظاهر الطبيعية في كاليفورنيا يمكن وصفه على أفضل وجه بأنه يتكون من سلسلة من "نقاط المرور" داخل "شبكة من العنف" (ميتشل، 2001). بالعنف ، لا أعني فقط العنف المجازي لـ "العمل الميت" كما تحدث عنه ماركس - العمل المتحجر في السلعة . أعني أيضًا العنف الجسدي الحقيقي : أيدي عمال المزارع المشوهة بسبب الآلات ؛ معارك البنادق والسكاكين في المدن

ومعسكرات العمل التي غالبًا ما تكون جزءًا من حياة عمال المزارع اليومية ؛ العنف الملحوظ الذي يمارس على المهاجرين أثناء محاولتهم عبور الحدود (الاغتصاب والاعتداء والقتل ، فضلاً عن الموت بسبب التعرض في الصحاري والجبال) ؛ والعنف الضمني والصريح في التفكك الاقتصادي ، والتهديد بالمجاعة ، والأسر الممزقة وأساليب الحياة المحلية في البلدان والقرى التي ينحدر منها عمال المزارع في كاليفورنيا .

والمظاهر الطبيعية ـ كموقع أو مرحلة من مراحل الإنتاج والتكاثر ـ مترابطة ـ من خلال هذه الشبكة من العنف . والمظاهر الطبيعية ـ كـ "طريقة للرؤية" تضفي طابعاً جمالياً على الحقائق والعلاقات في العمل أو تمحوها ـ تترابط ـ معاً ـ هذه الشبكة من العنف . ويتضح أننا نتعامل ـ مع شبكة ـ من خلال التداولات ـ للمال والطاقة والعمال ـ التي تجعل إنتاج السلع ممكناً (هندرسون، 1999). وبدلا من النظر إلى المظاهر الطبيعية كونها "شيئاً" محلياً ـ فإن النظر من وجهة نظر واحدة ـ لابد أن يُفهَم المشهد الطبيعي كونه **عقدة معقدة أو نقطة مرور في شبكة** (راجع شين، 1997). ومن وجهة نظر العمال المهاجرين في كاليفورنيا ، تشمل نقاط العبور هذه مكان الإنتاج ، ومعسكرات العمل ، ومدن الريف ، والحدود ، والمدن والقرى المختلفة في المكسيك حيث يسافر العمال شمالاً ، والمنطقة أو القرية الأصلية . ومن وجهة نظر رأس المال ، فإن حقل الفراولة ليس سوى نقطة واحدة من النقاط التي يدور من خلالها رأس المال .

ومن بين النقاط الأخرى البنوك ، ومصانع الأدوات الزراعية ، وهيئات العمال ، والمتاجر الكبرى . ومن وجهة نظر نظام الإنتاج الزراعي، قد تكون نقاط العبور هي التربة والنباتات في المزرعة نفسها ، والسياق الأوسع للمناخ الإقليمي والمحلي ، وهياكل التسويق الإقليمية ، وآليات البحث والضرائب الحكومية ، والقوانين المتعلقة بالعمل واستخدام المبيدات الحشرية . إن العنف يشكل مفتاحاً للمشهد الطبيعي ـ ومفتاحاً لنقاط العبور ـ لسبب بسيط ، فهو ما جعل (ويجعل) الفراولة التي أزرعها رخيصة للغاية ـ والحديقة الخلفية لمنزل والدي ـ جذابة للغاية . وبصورة أكثر دقة ، فإن العنف هو ما يجعل العمالة رخيصة للغاية ، وبالتالي يجعل الفراولة رخيصة . والسؤال القديم الذي يلف تطوير الزراعة الموسمية والتخصصية المكثفة في كاليفورنيا هو سؤال العمالة : ـ من أين تأتي ، وكيف نحصل على المزيد منها ، وكيف نتخلص منها عندما لا تكون هناك حاجة إليها بعد الآن ؟

إن المزارع في كاليفورنيا تعتمد على رأس المال ـ وقد ظلت تعتمد عليه لفترة طويلة ـ على افتراض وجود إمدادات ثابتة من العمالة الرخيصة التي يمكن الاستغناء عنها في كثير من الأحيان (فولر، 1939). وفي بدايتها في كاليفورنيا ، كانت الزراعة المكثفة وليدة العنف (العنف الذي يجعل العمالة رخيصة) ـ والمستثمرون يدركون ذلك (دانييل، 1981). والعمالة الرخيصة ـ بل وأكثر من ذلك ـ هي شعار الزراعة في كاليفورنيا . ولكن العمالة الرخيصة ليست سلعة طبيعية : بل لابد من تصنيعها وتكييفها وتقديمها للمزارعين متى وأينما احتاجوا إليها ، وفي الحالة المثالية ، ليس لفترة أطول مما يحتاجون إليه . وعلى هذا فإن تنظيم العمل العمالي يقاوم بلا رحمة ويظل العمال يتنقلون داخل الولاية وخارجها بسبب التهديد بالمجاعة أو العنف الذي يمارسه أفراد الحراسة الذاتية . ويتعين على الوافدين الجدد ، وخاصة أولئك القادمين من المكسيك والمناطق الواقعة إلى الجنوب منها ، أن يتفاوضوا على الحدود التي تزداد عسكرة وخطورة ، وهي الحدود التي تتسم بالعسكرة ودرجة الخطر التي تجعل عبورها مرة أخرى أمراً مكلفاً للغاية بالنسبة للعمال إذا ما "أعيدوا" إلى المكسيك أو غواتيمالا من قِبَل دائرة الهجرة والتجنيس .

والواقع أن تأثير هذا التهديد باستمرار العنف واضح : ذلك أن سياسات دائرة الهجرة والتجنيس تجعل العمال مترددين في الإبلاغ عن العمل غير القانوني وظروف المعيشة إلى الولاية (والسعي إلى الحصول على الرعاية الطبية للإصابات والأمراض التي يتعرضون لها في العمل)، وتجعل العمال يبذلون قصارى جهدهم لتجنب الوقوع في قبضة السلطات ، وهو ما يؤدي إلى زيادة عجز العمال (هيمان، 1998). إن إنتاج المظاهر

الطبيعية في كاليفورنيا ـ المظاهر الطبيعية التي تسمح بزراعة الفراولة بثمن بخس ـ يتطلب إعدام العمالة في مجموعة من الأماكن المترابطة الممتدة من نقطة الإنتاج عبر العالم .

ولكن كيف إذن يرتبط مشهد العنف هذا ، ذلك المشهد الذي تشكل من خلال جغرافية معقدة من العنف ، براحتي النسبية وأنا أجلس تحت أشعة الشمس في البلدة التي نشأت فيها ؟ كانت تلك البلدة ـ موراجا هو اسمها ـ ذات يوم موقعاً لبساتين الكمثرى والجوز الواسعة (التي كانت تُقَطَّع وتُقطَف ، في أيامها ، بواسطة جيوش من العمال المهاجرين). ونظراً لقربها من سان فرانسيسكو وأوكلاند وبيركلي والضواحي السكنية والتجارية المتنامية في مقاطعة كونترا كوستا ، فقد تم تقسيم موراجا وتطويرها كمجتمع "غرف نوم" من الطبقة المتوسطة العليا في الستينيات والسبعينيات . وتتضح البلدة بضواحي كاليفورنيا المزدهرة . تم إنشاء مزيج محدود من أنماط الإسكان (الاستعماري ، والهاسيندا ، والمزرعة) داخل حدائق ناضجة ، والتي كانت في السنوات الأولى تعتني بها في الغالب الأسر الشابة ، ولكن بحلول الثمانينيات أصبحت تعتني بها بشكل متزايد فرق من "مصممي المظاهر الطبيعية" . بحلول أوائل التسعينيات ، كانت موراجا سعيدة بالترويج لافتقارها إلى التنوع العرقي (أشارت إحدى منشورات ذلك الوقت بفخر إلى حقيقة أن أكثر من 95 % من سكانها من البيض غير اللاتينيين) وحقيقة أنها ، بين البلدات والمدن المدمجة في كاليفورنيا ، لديها أدنى معدل للجريمة . حتى مع الركود الشديد إلى حد ما في اقتصاد كاليفورنيا في النصف الأول من التسعينيات ، كانت المنازل تُباع غالبًا مقابل نصف مليون دولار أو أكثر.

بالنسبة لطفل مثلي ، كانت موراجا مكانًا رائعًا للنشأة (على الرغم من أنه بحلول الوقت الذي أصبحنا فيه مراهقين ، كانت ميزتها الرئيسية هي أنها تقع على مسافة قريبة بالسيارة من بيركلي وسان فرانسيسكو). كنا نتمتع بالركض في الساحات والشوارع - والتلال المحيطة أيضًا ، والتي كانت عبارة عن مزارع محمية تشكل جزءًا من منطقة المياه المحلية . كانت المدارس ممتازة والفرص التي أتاحتها هذه المدارس كانت هائلة . كانت موراجا بمثابة وعد كاليفورنيا - أو على الأقل نسخة منها . كانت بلدة من المهنيين المزدهرين - وما كان يُطلق عليه البرجوازية الصغيرة ، التي كان غنائها هو الغنائي القديم للعيش المريح الذي وعد به حلم كاليفورنيا . كانت شكل الضواحي لما وصفه كيفن ستار (1973)، "المؤرخ الرسمي" لولاية كاليفورنيا ، بأنه جنة يمكن تحقيقها من احترام الطبقة المتوسطة .

كانت موراجا - وما تزال - عالمًا بعيدًا عن الحقول ومعسكرات العمل في مقاطعتي ساليناس ومونتيري . إن هذا هو عبقرية المظاهر الطبيعية . فمن المؤكد أن موراجا ليست بعيدة عنا بعالم آخر: فهي ليست سوى الوجه الآخر لمدينتي ساليناس ومونتيري . ولنستمع إلى كيفين ستار وهو يصف وعد المظاهر الطبيعية في كاليفورنيا ، كما تمثله السلع التي أنتجتها في العقود الأولى من القرن العشرين : "في لون البرقوق أو المشمش ، وفي روعة وعاء من العنب المعروض في طقوس ، وفي زجاجة من النبيذ ، وصلت تربة كاليفورنيا وأشعة الشمس إلى ملايين الأميركيين الذين سيتصورون المكان البعيد من الآن فصاعداً كأرض مشمسة تتلألأ بجمال الأرض الخصبة". (1985: 128)

كان الوعد الذي قطعته كاليفورنيا هو أن "الأرض المثمرة" كانت في متناول الطبقة المتوسطة ، بما في ذلك كل أولئك "الشرقيين" الذين كانوا يأملون في بناء حياة جديدة من الريف/الضواحي الريفية على حافة القارة . ولكن مثل هذا الحلم هو خداع للمظاهر الطبيعية . وبالنسبة لستار، فإن تطوير "ثقافة الفاكهة" من أنقاض طفرة القمح العالمية في القرن التاسع عشر غذت قيم الاستخدام المسؤول للأراضي ، والرأسمالية الحكيمة ، والتعاون بين المزارعين في مسألة التعبئة والشحن والتسويق . وفوق كل شيء ، شجعت ثقافة

الفاكهة التحضر الريفي في رعاية المنازل ، وتأسيس المدارس والكنائس والمكتبات ، ورعاية المرافق الاجتماعية والترفيهية التي كانت تتناقض تمامًا مع موقف الغرب المتوحش من القمح .(1985 :34)

وهذا ليس صحيحًا تمامًا . فثقافة الفاكهة ، كما رأينا في حالة الفراولة ، لم تفعل أيًا من هذه الأشياء . أو، على نحو أكثر دقة ، فإن الدرجة التي فعلت بها ذلك لم تكن إلا من خلال الفصل بين أماكن مثل موراجا (حيث كانت مثل هذه الأشياء موجودة) وساليناس (حيث لم تكن موجودة ، على الأقل بالنسبة لجامعي الفراولة) في عالم الإيديولوجية ، وفي الوقت نفسه ربطها بشكل وثيق في عالم الترابط الاقتصادي . والهدف الكامل من المشهد هو إحباط التفكير الجدلي اللازم لكشف هذه الروابط ، وإظهار، كما يقول إيجلتون (2000: 23) في الاقتباس الذي افتتحت به هذا الفصل ، **أن الحضارة** (**"المدنية"** عند ستار)، في السماح بالإنجاز والراحة البشرية ، لا تفعل ذلك إلا من خلال قمع الأحلام والطموحات ، وفرص الحياة ذاتها ، لعدد لا يحصى من الآخرين .

أو لقلب هذا ، تقف موراجا كدليل على أن العنف والقمع ينتجان خيرًا - خير العيش المريح في الضواحي لكثيرين . إن الفارق بين ملاك الأراضي الأرستقراطيين الذين درسهم كوسجروف ، والذين أشرفوا على اختراع المظاهر الطبيعية حتى يتمكنوا من العيش في راحة (تشجيع التحضر الريفي) ، وعائلتي لم يكن سوى القرب ، سواء من حيث الجغرافيا أو تقسيم العمل ، إلى نقطة الإنتاج . لقد تم إزالة راحتنا مكانيًا من قمع عمال الفراولة ، لذلك الآن حتى علامات ذلك لم تعد بحاجة حقًا إلى إخفائها ؛ يمكن حجبها في مرأى من الجميع كما تخبرنا المظاهر الطبيعية في الضواحي أن راحتنا لن تنقطع أبدًا بسبب تدميرهم الجسدي .

يتكامل المشهد الطبيعي عن طريق التقسيم والفصل والإخفاء . وعن طريق المسافة : عن طريق وضع القمع ليس فقط خلف غابة مانور جيدة العناية ، بل على بعد مئات الأميال - أو حتى عبر العالم . ومع ذلك ، فإن موراجا هي منظر طبيعي مرتبط بالمظاهر الطبيعية الزراعية . بمعنى آخر ، لقد أصبحت هذه المنطقة الآن تزرع وتصان بنشاط من قبل عمال مؤقتين ، معظمهم من المكسيكيين أو من أصل مكسيكي، والعديد منهم الآن "استقروا" خارج التيار المهاجر الذي جلبهم إلى الولايات المتحدة وحقول كاليفورنيا . من الممكن أن يكون بعض أولئك الذين حصدوا وقصوا حواف حديقة والديّ - الحديقة التي وضعت عليها كرسيي في ذلك الصباح من شهر مايو 1991 - قد أصبحوا أو سيصبحون فيما بعد جامعي فراولة . أو إذا لم يكن الأمر كذلك ، فربما يكونون جامعي وبائعين للفواكه والخضروات الأخرى ، أو عمال النظافة في الحدائق المكتبية القريبة والمباني المهنية التي سمحت لموراجا بأن تكون مجتمعًا سكنيًا ناجحًا ، أو غاسلي الصحون في المطاعم العصرية الجديدة في لافاييت ووالنات كريك القريبتين . إن منظر موراجا المظاهر الطبيعية أصبحت ممكنة بفضل العديد من الأشخاص انفسهم (أو أنواع الأشخاص نفسها) مثل منظر الفراولة . موراجا هي واحدة من نقاط العبور وشبكات العنف التي يمر بها العمال المهاجرون وهم يربطون بين منظر كاليفورنيا.

ولكن أكثر من ذلك ، فإن مشهد موراجا أصبح ممكناً بمعنى آخر، ربما أقل مباشرة ، من خلال شبكات العنف ونقاط العبور التي تشكل المظاهر الطبيعية لقاطفي الفراولة . فالفواكه والخضراوات الرخيصة ، والسلع الأساسية الرخيصة أيضاً ، تجعل من الممكن جزئياً ارتفاع أسعار المساكن بشكل مفرط في اقتصاد منطقة الخليج . وهذا يعني أن تكاليف إعادة إنتاج الأسر مثل أسرتي (وبالتالي القدرة على تحقيق الربح من عملنا) يتم تقييدها من خلال تكاليف الغذاء الرخيصة . إن معيشتنا الجيدة في كاليفورنيا مدعومة بالموت اليومي في كاليفورنيا (القمع العنيف للتنظيم ، والعمالة الميتة التي تشكل جزءاً لا يتجزأ من إنتاج السلع) الذي يميز المشهد الزراعي في كاليفورنيا .

الخلاصة

كيف إذن ينبغي أن نتصور "المظاهر الطبيعية" ضمن الجغرافيا ؟ ما هي مكانتها الوجودية والمعرفية ضمن أنظمتنا لمعرفة العالم ؟ من الناحية الوجودية ، يمكن تصور المشهد الطبيعي أولاً (وإن لم يكن حصريًا) كونه عملاً ميتًا . وهذا يعني أن المشهد الطبيعي هو نتاج اجتماعي، إنه شيء مصنوع ، ويعاد صنعه باستمرار. ولكن القول بأن المشهد الطبيعي يعاد صنعه باستمرار لا يعني أنه دائمًا وفي حالة تغير كامل . على العكس من ذلك ، يجب أيضًا فهم المشهد الطبيعي كونه **"ديمومة منظمة"** . وكما طور هارفي فلسفة "الديمومة" التي وضعها وايتهايد ، فإن الديمومة ليست فقط الكائن "غير القابل للتدمير عمليًا" الموصوف سابقًا ، بل أيضًا ، وبشكل حاسم ، "نظام من "الارتباط الواسع ""حيث "تحقق الكيانات استقرارًا نسبيًا في" حدودها وتنظيمها الداخلي للعمليات التي تخلق الفضاء ، لفترة من الوقت "(1996 :261).

النقطتان الرئيسيتان هنا هما، **أولاً**، أن الدوام مبني على اتصالات واسعة النطاق. أي أن الحجم مهم لأن العمليات التي تعمل على مجموعة متنوعة من المقاييس هي التي تشكل الدوام . ولكن **ثانياً**، إن الدوام هو الذي يستوعب هذه الاتصالات الواسعة ، ويعطيها الشكل والهيئة ، ويحولها إلى شيء مستقر (نسبياً) ، شيء يقيم في العالم ويصبح فاعلاً في العلاقات الاجتماعية المستمرة . وتشمل هذه الاتصالات الواسعة الصراعات حول المعنى بقدر ما تشمل الصراعات المادية حول الظروف التي يعيش فيها ، على سبيل المثال ، عمال المزارع المهاجرون . جزء مما يستوعبه المشهد هو ما يجعله الناس يعنيه . فالعمل الفكري بقدر ما هو العمل البدني ميت في المشهد وبواسطته .

والأمر الحاسم هو أن المشهد كعمل ميت ، وبكونه تجسيدًا ماديًا للعلاقات الاجتماعية المتجسدة ، فهو تعويذة . أو بالأحرى ، **فإن المظاهر الطبيعية بالضرورة ، كجزء من وجودها ذاته ، تقدس العلاقات الاجتماعية التي تشكلها** . وعلى المستوى المعرفي ، فإن مفتاح فهم المظاهر الطبيعية (وبالتالي تحويلها) يدور أولاً حول فهم كيفية صنعها – وخاصة أين ، ومن قبل من ، وفي ظل أي ظروف . وثانياً ، فإن السؤال الرئيسي بالنسبة للمظاهر الطبيعية ليس لماذا وكيف تتغير دائماً (على الرغم من أن هذا أمر بالغ الأهمية)، بل لماذا وكيف بقيت على حالها ؟ ما الذي يجعلها "دائمة" ؟ وما هي آثار هذه الدوامة ؟ وكيف يتم الحفاظ عليها في مواجهة كل أولئك الذين يعملون على تحويلها ؟ **ما الذي يتم تحويله إلى عبادة في المظاهر الطبيعية ولماذا؟**

هذه هي الأسئلة التي نحتاج دائمًا إلى طرحها عن المظاهر الطبيعية . ولكن – وهذه هي عبقرية المظاهر الطبيعية كطريقة للرؤية – هي الأسئلة التي نادراً ما نطرحها . بعد عقد من الزمان منذ ذلك الأحد الربيعي في كاليفورنيا ، أعيش الآن في شمال ولاية نيويورك ، وأنا أكتب هذه الكلمات في يوم ، في دفئه اللطيف ، لا يختلف كثيرًا عن ذلك اليوم السابق . كانت الفراولة تُباع هذا الأسبوع في سوق قريبة مقابل 99 سنتًا للباينت ، وهو سعر رخيص بشكل مثير للسخرية . ووفقًا للصندوق الموجود في المتجر، فقد تم قطف التوت من الساحل الأوسط ، وهو جميل . انتقل والداي منذ ذلك الحين إلى جبال فيرجينيا ، ومن الربح الذي حققاه من بيع منزلهما في موراجا (وميزة صغيرة في قانون الضرائب للطبقات العليا تسمح بتجنب ضرائب مكاسب رأس المال على الهدايا المقدمة لأفراد الأسرة) ، تمكنت أنا وزوجتي من شراء شقة صغيرة أولاً في بولدر، كولورادو، ثم منزل قديم أكبر بكثير في سيراكيوز، نيويورك ، حيث نعيش الآن . بدلاً من الكمثرى والأوكالبتوس ، تظلل حديقتنا شجرة جوز سوداء كبيرة قديمة . الزهور ليست خشخاش كاليفورنيا ، بل زهور الفاوانيا التي تتكيف بشكل جيد مع هذا المناخ الرطب والبارد . على الطريق من منزلنا ، أقرب من حقول الفراولة إلى منزل والدي القديم ، توجد منطقة زراعة تفاح منتجة بشكل لا يصدق وجميلة بشكل لا يصدق .

كل خريف تأتي جيوش من العمال المهاجرين إلى المنطقة لقطف الثمار الناضجة . لا أعرف شيئًا عنهم . لا أعرف شيئًا عن هويتهم ، ومن أين أتوا ، وكم يتقاضون من أجور، وأين يعيشون أثناء وبعد الموسم . لا يخبرنا التفاح الذي نأكله بأي شيء عن هذه الأشياء ، والمظاهر من الطرق والطرق السريعة لا تقدم سوى القليل من الأدلة أيضًا . قد تكون حياة قطاف الفاكهة عالمًا بعيدًا عن حياتي . المظاهر الطبيعية في حديقتي الخلفية ، حيث تزهر زهور السوسن بشكل مذهل ، وقد قام فريق من عمال المظاهر الطبيعية للتو ببناء حديقة خضروات جديدة مرتفعة لنا ، هادئة وريفية ولكن حديقة والدي في موراجا كانت كذلك .